دراسات حول تفسير الكشّاف

الدكتور محمد بلال حسين
الاستاذ المساعد في قسم الدراسات الإسلامية
بجامعة راجشاهي ببنغلاديش

الكشاف أضخم كتب التفسير للمعتزلة التي وصلت إلى أيدينا، وهو يمثل اتجاهاً معيناً في العقيدة حرص المؤلف الزمخشري على إظهاره ويتميز تفسيره به، وهذا الاتجاه هو الاعتزال، وعبر المؤلف فيه عن عقيدة الاعتزال من خلال شرحه الآيات. ويمكننا أن نقول إنه جمع فيه أقوال أئمة الاعتزال المتقدمين مثل الجاحظ والقاضي عبد الجبار وغيرهما من كبار علماء المعتزلة. ومن ناحية أخرى إن هذا التفسير رسم فيه الطابع البلاغي الذي طغى عليه فأصبح مميزاً له عن سواه من التفاسير الأخرى. وهذه الناحية البلاغية لم تأت المؤلف اعتباطاً وإنما كانت هناك ضرورة لازمة حتمتها الغاية التي حدت بالزمخشري إلى الشروع بتفسير القرآن وكانت البلاغة سلاحاً حاداً للزمخشري استعان بها على إخضاع معنى الآيات إلى عقائد المعتزلة.

وإذا أغفلنا النظر عما فيه من قضايا الاعتزال، ظهرت لنا مكانته العالية بحيث إنه لم يسبقه أحد إلى مثل هذا التفسير، وهو أول كتاب أظهر لنا الكثير من جمال النظم وجودة السبق القرآني كما أنه أبان دقة المعنى وخفي اللفظ، لأن الزمخشري كان شديد الحرص على أن يخرج تفسير الآيات القرآنية بهذا اللون الزاهي، ولا يوجد تفسير أجمل منه ولا أكثر منه فائدةً فصار مشهوراً بين الخواص والعوام وأصبح تدريسه ميداناً للملكات الراسخة ومجالاً لقوة العوارض ونفوذ الأنظار وسمو البيان. وتتابعت العناية به تدريساً وتخريجاً وتأليفاً وعمت منزلته الأقطار الإسلامية حتى التُزم في المناهج الدراسية في بلاد فارس وبلاد أفغان وشبه القارة الهندية وعموم الممالك الإسلامية. وهاكم نجمل بياناً ودراسة حول هذا التفسير فيما يلي:

الكشاف ومناسبة تأليفه

كان الزمخشري إمام عصره في اللغة والنحو والبيان والتفسير والحديث والفقه بلا منازع، وكانت تشد إليه الرجال في كل فن منها[1] وكان مرجعاً وحيداً لعلماء المعتزلة في حل مشاكلهم الاعتقادية والقضايا

الدينية وما تثور في اذهانهم من تساؤلات حول آي الذكر الحكيم التي تخالف ظاهرها، مما بنيت نفوسهم من الافكار الاعتزالية، فجعلوا يعكفون عليه ويكثرون الأسئلة ويستفتونه عن تفسير الآيات فيجيبهم ويفسر لهم بما أُوتي من قوة لغوية وملكة بيانية فطربوا وعجبوا حتى عرضوا عليه أن يصنف لهم كتاباً يضمن هذا التفسير فيبرد به صدورهم وتطمئن به نفوسهم كما رأينا الزمخشري يحرر طلبتهم هذه في مقدمة تفسيره[٢]: «لقد رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية الجامعين بين علم العربية والأُصول الدينية كلّما رجعوا إليّ في تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب، أفاضوا في الإستحسان والتعجب، واستطيروا شوقاً إلى مصنف يضم أطرافاً من ذلك حتى اجتمعوا إليّ مقترحين أن أملي عليهم الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. فاستعفيت، فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد. والذي حداني على الاستعفاء على علمي انهم طلبوا ما الإجابة إليه عليّ واجبة لأن الخوض فيه كفرض العين ما أرى عليه الزمان من رثاثة أحواله وركاكة رجاله وتقاصر هممهم عن أدنى عدد هذا العلم فضلاً عن أن تترقى إلى الكلام المؤسَّس على علمي المعاني والبيان، فأمليت عليهم مسألة»[٣]. فاتخذ الزمخشري اقتراح العلماء هذا وفكر فيه. إن ضخامة هذا العمل المهم يستلزم مدة طويلة من ثلاثين سنة فكيف يكتبه وقد تجاوز الخمسين من عمره وبلغ كبره، فأشفق منه وارتحل عن خوارزم إلى مكة فاناخ بحرمها وجاورها مرة ثانية[٤] واجتمع بأميرها ابي الحسن علي بن حمزة بن وهاس العلوي وكان معجباً به فقال له الأمير إنه حدث في نفسه مدة غيبته عن مكة أن يفد عليه بخوارزم ليحظى على هذا المعلى في التفسير فهذا كلام الأمير ابن وهاس شجع الزمخشري على التأليف وقوى عزيمته وجدد رغبته في إتمام هذا الكتاب[٥]. فعزم الزمخشري على أن يتم تفسير القرآن في ذلك الجو الديني حتى بدأ يكتب تفسيره في داره السليمانية التي تقع على باب أجياد، تجاه الكعبة المشرفة سنة ٥٢٦ هـ وفرغ منه ضحوة يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٢٨ هـ وكان عمره آنذاك ٥٩ سنة وقد استغرق تأليفه هذا سنتين وثلاثة أشهر فقط. وذلك أمكن له ببركة بيت الله الحرام، كما كان يقول بنفسه: «وما هي إلا آية من آيات هذا البيت المحرم وبركة أُفضيت علي من بركات هذا الحرم المعظم»[٦]. ولما أخرج الزمخشري تفسيره للناس قال مسروراً:

وناهيك بالكشاف كنزاً نضاره
يعلم تمييز الجياد الصيارفا
وتخفق أوراق المصاحف هزة
لهن معان يزدهين المصاحفا[٧]

فلما صنف كتابه هذا كتب استفتاح الخطبة: «الحمد لله الذي خلق القرآن». فقيل له لم كتبت هذا فيتركه الناس فبدله بقوله: «الحمد لله الذي جعل القرآن». وجدير بالذكر أن الجعل والخلق بمعنى واحد عند المعتزلة[٨].

تقويم الكشاف فنياً

«الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل» هو أول كتاب كشف أسرار بلاغة القرآن الكريم وأبرز وجوه إعجازه وأوضح غريب ألفاظه وغوامض معانيه[٩]، قال شوقي ضيف فيه «قدم فيه الزمخشري صورة رائعة بديعة لتفسير القرآن تعينه في ذلك بصيرة نافذة تتغلغل في مسالك التنزيل وتكشف عن خفاياه ودقائقه، كما يعينه ذوق أدبي مرهف يقيس الجمال البلاغي قياساً دقيقاً وما يطوى فيه من كمال وجلال، وهو من هذه الناحية ليس له قرين سابق ولا لاحق في تاريخ التفسير»[١٠].

وهذا الكتاب الكافل، عميق الأغوار والأفكار، في فن

التفسير المشتهر بتفسير الكشاف، طار ذكره في الآفاق في رائعة النهار لما اشتمل على خصائص نادرة وسمات عديدة[١١]، وقد أُعجب به الزمخشري نفسه إعجاباً فقال تياهاً وفخوراً:

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد
وليس فيها لعمري مثل كشافي
إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته
فالجهل كالداء والكشاف كالشافي[١٢]

وقال ايضاً:

هل يكشف الكشاف والفائق العمى
إذا تليت يوم القضاء القضائض
يعد الكتاب النور والسنة السنا
من لخصت في الجامعين المخائض[١٣]

وهذا التفسير لم يتلقّه علماء أهل السنة بحسن القبول لأنه أضخم تفسير للمعتزلة يعبر عن عقائدهم من خلال تفسير الآيات، فإن مؤلفه قد أتى فيه بجمع أقوال أئمة المعتزلة وآرائهم مثل الجاحظ والقاضي عبد الجبار والرماني وغيرهم من أكابر الاعتزال ووضع اتجاهاتهم في التفسير وزناً راجحاً لتقدير القرآن من الوجهة البلاغية واستخراجهم للاستعارات وغيرها من عبارات المجاز[١٤]، قال ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ): «ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشري من أهل خوارزم العراق إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد فيأتي بالحجج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض له في آي القرآن من طرق البلاغة، فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه وتحذير للجمهور من مكانه مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة»[١٥].

وحاول أيضاً في كتابه هذا أن ينتصر لمذهبه ويدافع عنه وحمل الآيات في براعة فائقة وأخضعها لمذهبه الاعتزالي وخالف أهل السنة وبالغ في سبابهم بعبارات فاحشة كالمجبرة والمبطلة والمشبهة، وربما نسبهم إلى أهل الأوهام والخرافات والكفر على سبيل التعريض[١٦]. لذلك فقد أخذ عليه جميع المصنفين من أهل السنة ولاموه وانتقدوه واستنكروا عليه، كابن خلدون والشيخ حيدر الهروي (ت ٨٤٠ هـ) وابن المنير (ت ٦٨٣ هـ) وناج الدين السبكي (ت ٧٧١ هـ) وجلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ). وقد أنشد أبو حيان (ت ٧٤٥ هـ) قصيدة ذم فيه[١٧]:

لا تعد عن كشاف شيخ زمخشر
وكاشف به بغي الكرامات خارقا
ولكنه فيه مجال لناقد
وزلات سوء قد أخذن المخانقا
فيثبت موضوع الأحاديث جاهلاً
ويعزو الى المعصوم ما ليس لائقا
ويشتم أعلام الائمة ضلةً
ولا سيما أن أولجوه المضايقا
ويسهب في المعنى الوجيز دلالة
بتكثير ألفاظ تسمى الشقاشقا
يقول فيها الله ما ليس قائلاً
وكان محباً في الخطابة وامقا
ويخطئ في تركيبه لكلامه
فليس لما قد ركبوه موافقا
وينسب إبداء المعاني لنفسه
ليوهم اغماراً وإن كان سارقا[١٨]

وإذا أغفلنا النظر عما فيه من قضايا الاعتزال نجد أنه تفسير لم يسبق له مثيل لإبانته عن وجوه الإعجاز في آيات القرآن وبلاغته وفصاحته، لأن صاحبه الزمخشري ألبس عليه الثوب القشيب مما جعله محط أنظار المفسرين المتأخرين واستعمل أيضاً لغة رفيعة سامية بليغة واضحة وأحاط بعلوم البيان والمعاني والنحو واللغة وسائر العلوم مما يحتاج إليه المفسر[١٩].

ومن أجل هذه الأهمية أقبل العلماء في العصور المختلفة، حتى في عصرنا الحاضر، على تأليف الكتب حول الكشاف، فقد كان منها كتب في الرد على أفكار الاعتزال وكتب تتعلق بالشواهد وكتب تتصل بتخريج الأحاديث وكتب تعد شرحاً وتلخيصاً،[٢٠] نذكر منها على سبيل التمثيل:

كتاب الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال[٢١]

ألفه ابن المنير الاسكندري المالكي (ت ٦٨٣ هـ). ذكر المؤلف في هذا الكتاب إعتزاليات الزمخشري ونبه عليها ولم يترك له إشارة ولا تصريحاً غير أن يأتي عليه بالدراسة والرد وهذا أعظم الحواشي لنقد الكشاف لأن مؤلفه ابن المنير كان أعدى الخلق للمعتزلة[٢٢].

ولخص الإمام جمال الدين عبدالله بن يوسف بن هشام (ت ٧٦٢ هـ) هذا الكتاب في مختصر لطيف وحذف الإطالة في نقل كلام الزمخشري فأبقى ما وافق الصواب على حاله وما خالف ذلك أوضح أسباب ضعفه، وقد أثنى عليه العلماء ثناء عاطراً، طبع هذا الكتاب بهامش الكشاف في عدة من مطابع العالم[٢٣].

فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب[٢٤]

مؤلفه شرف الدين الحسن بن محمد الطيبي (ت ٧٤٣ هـ) وهذا أعظم حواشي الكشاف ويقع على ستة مجلدات ضخمات، فإن المؤلف ذكر فيه وجوه القراءات، وصحة الأحاديث والروايات، وحقق اللغات، ودقق النكت، وأورد المسائل على وجه الإكمال، وإنه أقبل على تأليف هذا الكتاب لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام أنه ناوله قدحاً من اللبن فأصاب منه ثم تناوله النبي صلى الله عليه وسلم فشرب منه شيئاً[٢٥]. وكان متردداً في شروع هذا الكتاب، فلما رأى ذلك المنام استخار الله وشمر عن ساق الجد والجهود حتى شرع وله فضل كبير حتى قال العلماء في شأنه: لا ينبغي أن يقرأ الكشاف الا مع حاشية الطيبي[٢٦].

الكشاف على الكشاف[٢٧]

ألفه شيخ الاسلام سراج الدين عمر بن رسلان الباقيني (ت ٨٠٥ هـ) جمع فيه المؤلف فوائد كثيرة وضم نكتاً دقيقة فذكر في هذا الصدد عبارات الكشاف ثم شرحها باسلوب رائع ولم يتبع فيه أساليب المتقدمين إنما ذكر من الكلام اليسير وهذا يقع على ثلاثة مجلدات[٢٨].

درر الأصداف في حل عقد الكشاف[٢٩]

مؤلفه الشيخ عماد الدين يحيى بن قاسم العلوي الشهير بابن اليميني (ت ٧٣٨ هـ) وهي حاشية جليلة وله حاشية أخرى غير هذه الحاشية، والسبب في تأليفها أنه لما وقف على حاشية الطيبي وجد فيها ما ذكره صاحب الاتصاف والانصاف وغيرهما فسأله بعض إخوانه في الانتخاب منها، فأجابهم إجابة سلبية وأراد أن يجمع بين حاشية الطيبي وحاشيته المسماة «بدرر الأصداف» حتى انتخب لهم حسب سؤالهم في مجلد واحد سماه «بتحفة الأشراف بكشف غوامض الكشاف» في أولها «الحمد لله الذي أنزل قرآنه العظيم»[٣٠].

حاشية على الكشاف[٣١]

حشاها قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي (ت ٧١٠ هـ) وهذه الحاشية معتبرة مفيدة لطيفة تقع على مجلدين[٣٢].

التنقيح والتمييز في اعتزال الزمخشري من الكتاب العزيز[٣٣]

مؤلفه الشيخ سراج الدين أبو علي عمر بن محمد السكوني (ت ٧١٧ هـ). هذه الحاشية متوسطة الحجم تقع على جزء واحد. في اوله «الحمد لله رب العالمين[٣٤]...».

تقريب التفسير[٣٥]

ألفه قطب الدين محمد بن مسعود بن محمود السيرافي (ت ٧١٢ هـ)، هذا مختصر جيد للكشاف، أزال

فيه المؤلف اعتزال الزمخشري ونقحه وهذبه وضم إليه فوائد كثيرة، وهذا الكتاب صغير الحجم جيد النظم مشتمل على أهمية الكشاف مع زيادات شريفة نافعة جليلة اعتبره العلماء وتلقوه بالقبول. أتمه المؤلف في ١٩ من شوال سنة ٦٩٨ هـ ببلدة شيراز. وقد حشا عليه الشيخ علاء الدين علي بن عمر الأرزنجاني (ت ٩٥٤ هـ) بحاشية سماها بتوضيح مشكلات التقريب وهي حاشية معتبرة مقبولة[٣٦].

حاشية الشيخ برهان الدين الهروي[٣٧]

ألفها الشيخ برهان الدين حيدر بن محمد الهروي (ت ٨٣٥ هـ). هذه حاشية لطيفة جداً ولكن عباراتها غريبة وصعبة، ناقد المؤلف في هذه الحاشية شيخه وأجاب عن الاعتراضات التي وردت من جانب السيد وهي متوسطة الحجم. وقيل هذه تعليقة على الكشاف[٣٨].

حاشية على الكشاف[٣٩]

ألفها احمد بن سليمان بن كمال باشا (ت ٩٤٠ هـ) وهي حاشية مفيدة كثيرة التحقيق والتدقيق جمع فيها المؤلف لب حواشي الكشاف وهي من أحسن مصنفاته على ما ذكره عرب زاده في حاشية الشقائق، واعترض المؤلف في أكثر مواضعها على السيد الولي مهدي الشيرازي (ت ٩٥٦ هـ) وله حاشية على حاشية الكشاف للشريف وقيل له حاشية على بعض المواضع من تفسير الكشاف[٤٠].

الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف[٤١]

هذا أكبر الكتب على تخريج أحاديث الكشاف ألفه حافظ أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٩٥٢ هـ) لخصه من كتاب تخريج الأحاديث للإمام الزيلعي الحنفي (ت ٧٦٢ هـ) استوعب فيه ابن حجر من الأحاديث المرفوعة بإيضاح طرقها وتسمية مخرجها، كما قال في صدده: «لخصته مستوفياً لمقاصده غير مخل بشيء من فوائده. وقد كنت تتبعت جملة كثيرة لا سيما من الموقوفات فاته تخريجها إما سهواً وإما عمداً ثم أخرت ذلك وأضفته إلى المختصر من هذا التلخيص واقتصرت في هذا على تجريد الاصلي[٤٢]. ويقع هذا الكتاب على مجلد واحد وتوجد نسخته في دار الكتب المصرية»[٤٣].

مصادر الكشاف

إن المصادر التي اعتمد عليها الزمخشري واستمد منها ورجع إليها في تفسيره الكشاف مشتملة على المصادر التالية[٤٤]:

المصادر اللغوية

اعتمد الزمخشري على مصادر لغوية في تحقيق غريب ألفاظ القرآن ككتاب الحجة لأبي علي الفارسي (ت ٣٧٧ هـ)، وكتاب الكامل للمبرد (ت ٢٨٥ هـ)، وكتاب المحتسب لابن جنى (ت ٣٩٢ هـ)، وكتاب سيبويه (ت ١٨٩ هـ)، واستمد ايضاً من كبار اللغويين كالخليل بن احمد (ت ١٨٠ هـ)، والجوهري (ت ٣٩٣ هـ)، والاصمعي (ت ٢١٦ هـ)، ومعاذ الهراء (ت ١٨٧ هـ)، والكسائي (ت ١٨٩ هـ)، وغيرهم فنقل عنهم طريق تصاريف الكلمات ومشتقاتها وجموعها وإعرابها[٤٥]، كما رأينا الزمخشري ينقل قول الخليل بن احمد وسيبويه للاستشهاد عند تفسير «الم»[٤٦] فقال: «فإن قلت: هلا زعمت أنها مقسم بها وأنها نصبت قولهم نعم الله لأفعلن وإي الله لأفعلن على حذف حرف الجر وإعمال فعل القسم. وقال ذو الرمة: الا رب من قلبي له الله فأصح. وقال آخر: فذاك أمانة الله الثريد. قلت إن القرآن والقلم بعد هذه الفواتح محلوف بهما فلو زعمت ذلك لجمعت بين قسمين على قسم واحد، وقد استكرهوا ذلك. قال الخليل في قوله عز وجل: ﴿وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى * وَالنَّهارِ إِذا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثى﴾ الواوان الأخريان ليستا بمنزلة الاولى ولكنهما الواوان اللتان تضمان

الأسماء الى الأسماء في قولك مررت بزيد وعمرو والأولى بمنزلة الباء والتاء، قال سيبويه قلت للخليل فلم لا تكون الأخريان بمنزلة الأولى؟ فقال إنما أقسم بهذه الأشياء على شيء ولو كان انقضى قسمه بالأول على شيء لجاز»[٤٧].

مصادر التفسير

اعتمد الزمخشري كثيراً على آراء المفسرين من المعتزلة مثل عمرو بن عبيد المعتزلي (ت ١٤٤ هـ)، وأبي بكر الأصم المعتزلي (ت ٢٣٥ هـ)، وأبي الحسن علي بن عيسى الرماني (ت ٣٨٤ هـ)، وغيرهم، وكثيراً ما نجد الزمخشري يتأثر بالرماني المفسر المعتزلي فينقل عن تفسيره، فمثلاً قال الزمخشري ناقلاً عنه عند قوله تعالى ﴿الرَّحْمٰنِ الرَّحيمِ﴾[٤٨] من سورة الفاتحة: «فإن قلت: فلم ما هو أبلغ من الوصفين على ما هو دونه والقياس الترقّي من الأدنى إلى الأعلى كقولهم فلان عالم نحرير وشجاع باسل وجواد فياض؟ قلت: كما قال «الرحمن» فتناول جلائل النعم وعظماءها وأصولها أردفه «الرحيم» كالتتمة والرديف ليتناول ما دق منها وما لطف»[٤٩].

كذلك استعان بتفسير الرماني عند قوله تعالى ﴿يومَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَدَاه﴾[٥٠] فقال، المرء هو الكافر لقوله تعالى ﴿إنا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً﴾[٥١] والكافر ظاهر وضع موضع الضمير لزيادة الذم ويعني ما قدمت يداه من الشر كقوله ﴿وذُوقُوا عَذابَ الحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُم﴾[٥٢] هذه العبارة نقلها الزمخشري من تفسير الرماني.

ورأينا الزمخشري يعتمد على تفسير الزجاج في عدة مواضع من تفسيره؛ فمثلاً عند قوله تعالى ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾[٥٣] قال: هل بمعنى قد في الاستفهام خاصة والأصل أهل أي كان شيئاً منسياً غير مذكور نطفة في الأصلاب والمراد بالإنسان جنس بني آدم بدليل قوله إنا خلقنا الإنسان من نطفة، حين من الدهر، طائفة من الزمن الطويل الممتد[٥٤].

مصادر الحديث

اعتمد الزمخشري في ذكر الحديث على كتب الصحاح الستة وكتب السنة الاخرى كالمسند للامام أحمد بن حنبل والدلائل للبيهقي والمصنف لابن أبي شيبة والمستدرك للحاكم والصحيح لابن حبان. ولم يصرح اسماء هذه الكتب إلّا اسم الصحيح لمسلم[٥٥] فذكره في عدة مواضع في تفسيره كما رأيناه ينقل الحديث عن صحيح مسلم عند تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَها﴾[٥٦] فقال الزمخشري «ما سمعناه في صحيح مسلم عن ابراهيم عن الاسود قال: دخل شباب من قريش على عائشة رضي الله عنها وهي بمنى وهم يضحكون فقالت: ما يضحككم؟ قالوا: فلان خرّ على طنب فسطاط فكادت عنقه أو عينه أن تذهب. فقالت: لا تضحكوا، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة»[٥٧].

ثم رأينا الزمخشري يروي الأحاديث عن الجامع الصحيح للبخاري في عدة مواضع، مثلا نجده ينقل حديثاً عند قوله تعالى ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِي الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُون﴾[٥٨] إن جبريل عليه الصلاة والسلام نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورته[٥٩]. هذا الحديث رواه البخاري في جامعه بطريق مسروق عن عائشة رضي الله عنها[٦٠].

وأخذ أيضاً الأحاديث عن الجامع للترمذي والسنن لأبي داود والمسند للامام احمد بن حنبل (رح) كما نجده ينقل حديثاً عند قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ ولا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ

ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ ما يَشْتَرُونَ﴾[٦١] وعن النبي صلى الله عليه وسلم: من كتم علماً عن أهله ألجم بلجام من نار[٦٢]، هذا الحديث رواه أبو داود والترمذي والامام أحمد بن حنبل بطريق أبي هريرة رضي الله عنه[٦٣].

وأخذ الأحاديث عن الدلائل للبيهقي في عدة مواضع، فمثلاً رأيناه ينقل حديثاً عند قوله تعالى ﴿وَهُمْ يَنْهَونَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَانْ يُهْلِكُونَ إلّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[٦٤] وروي أنهم اجتمعوا الى أبي طالب وأرادوا برسول الله صلى الله عليه وسلم سوءاً فقال:

والله إن يصلوا إليك بجمعهم
حتى أوسَّدَ في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة
وابشر بذاك وقر منه عيونا
ودعوتني وزعمت إنك ناصح
ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرضت ديناً لا محالة أنه
من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذارى سبة
لوجدتني سمحاً بذلك مبينا[٦٥]

فهذا الحديث رواه البيهقي في دلائل النبوة من طريق اسحق[٦٦].

مصادر الأدب والشعر

استمد الزمخشري من ديوان الحماسة لأبي تمام (ت ٢٣١ هـ) فنقل الشعر عن هذا الديوان في مواضع شتى منها ذكر عند قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾[٦٧] قال «للاستبعاد» والمعنى أن الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير مستبعد في العقل والعدل كما تقول لصاحبك وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها استبعاداً لتركه، ومنه في بيت الحماسة:

لا يكشف الغماء الا ابن حرة
يرى غمرات الموت ثم يزورها[٦٨]

واعتمد ايضاً على أشعار أبي نؤاس (ت ١٩٧ هـ) وجرير (ت ١١٤ هـ) في مواضع كثيرة منها ذكر شعر أبي نؤاس عند قوله ﴿فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾[٦٩] ومعنى تزيين العمل والإضلال واحد وهو أن يكون العاصي على صفة.... ويقعد تحت قول ابي نؤاس:

اسقني حتى تراني حسناً عند القبيح[٧٠]

كذلك ذكر شعر جرير في الآية نفسها للشواهد كما قال «حسرات» مفعول له يعني فلا تهلك نفسك للحسرات وعليهم صلة «تذهب» كما تقول هلك عليه هبا..... كما قال جرير:

مشق الهواجر لحمهن مع السرى
حتى ذهبن كلاكلا وصدور[٧١]

واستمد ايضاً عن اشعار تأبط شراً (ت ٩٢ هـ) في كثير من المواضع منها ذكر شعره عند قوله تعالى ﴿وَاللهُ الَّذي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فسقناهُ إلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذَلِكَ النُّشُور﴾[٧٢]. فإن قلت لم جاء فتثير على المضارعة دون ما قبله وما بعده.... كما قال تأبط شراً:

بأني قد لقيت الغول تهوى
بسهب كالصحيفة صحصحان[٧٣]

واعتمد على اشعار أمية بن ابي الصلت (ت ٨/٧ هـ) فمثلا ذكر شعره عند قوله تعالى ﴿وَالَّذينَ هُمْ لِلزَّكٰوةِ فَاعِلُون﴾[٧٤] في بيان معنى الزكاة قال أمية بن أبي الصلت:

المطعمون الطعام في السنة

لاذمة والفاعلون للزكوات[٧٥]

واستمد عن ديوان لبيد (ت ٦١٦ هـ) والأخطل (ت ٥٩٥ هـ) فنقل الاشعار عنهما في مواضع كثيرة منها ذكر عند قوله تعالى ﴿وَإِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ العَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[٧٦]. عليهم ثاني مفعولي يحسبون، أي يحسبون كل صيحة واقعة عليهم وضارة لهم لجبنهم وهلعهم وما في قلوبهم من الرعب إذا نادى مناد في العسكر أو انفلتت دابة أو أنشدت ضالة ظنوه إيقاعاً بهم وقيل كانوا على وجل من أن ينزل الله فيهم ما يهتك أستارهم ويبيح دماءهم وأموالهم ومنه أخذ الاخطل:

ما زلت تحسب كل شيء بعدهم

خيلاً تكر عليهم ورجالا[٧٧]

وذكر شعر لبيد عند قوله تعالى ﴿فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مأْواكم النَّارُ هِيَ مَوْلَكُمْ وَبِئْسَ المَصِيرِ﴾[٧٨] قيل هي أولى بكم وأنشد قول لبيد:

فغدت كلا الفرجين تحسب انه

مولى المخافة خلفها وأمامها[٧٩]

كذلك اعتمد الزمخشري على كتاب الحيوان للجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) وكتاب أبي العلاء المعري (ت ٤٣٩ هـ) في بيان النكت الادبية والبلاغية والصناعة النحوية[٨٠].

أهم خصائص الكشاف

إن تفسير الكشاف قد بلغ في نجاحه وفوزه مبلغاً عظيما وفاق على سائر كتب التفسير بمميزاته الفريدة حتى اعتبره العلماء ممثلاً للقيمة الرفيعة للتفسير الاعتزالي كما اعتبروا تفسير الطبري ممثلاً للقيمة العليا في التفسير المأثور[٨١]، وهذه المميزات الخاصة التي لا توجد في كتاب آخر هي:

الاستشهاد بالآيات والأحاديث

استشهد بالآيات والأحاديث كثيراً في الكشاف، فسر الزمخشري آيات القرآن بآياته الأخرى في بعض الأحيان واستعان في ذلك بالأحاديث النبوية وآثار الصحابة والتابعين[٨٢] وأمثلة ذلك كثيرة، منها انه استشهد بآية عند تفسير قوله تعالى ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلَى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٨٣] فإن قلت: لم قيل مما نزلنا على لفظ التنزيل دون الإنزال، قلت: لأن المراد النزول على سبيل التدريج والتنجيم وهو من مجازه لمكان التحدي وذلك أنهم كانوا يقولون لو كان هذا من عند الله مخالفاً لما يكون من عند الناس لم ينزل هكذا نجوماً سورة بعد سورة وآيات بعد آيات على حسب النوازل وكفاء الحوادث وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر من وجود ما يوجد منهم مفرقا حينا فحيناً، شيئاً فشيئاً، حسب ما يعن لهم من الأحوال المتجددة والحاجات السانحة لا يلقى الناظم ديوان شعره دفعة ولا يرى الناثر بمجموع خطبه او رسائله ضربة فلو انزله الله لانزله خلاف هذه العادة جملة واحدة[٨٤]. قال الله تعالى ﴿وَقالَ الَّذينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنَ جُمْلَةً واحِدَةً﴾[٨٥].

استشهد الزمخشري بهذه الآية على ثبوت نزول القرآن نجماً نجماً وقطعة قطعة لأن القرآن لو أنزل جملة واحدة في مرة واحدة لاعترض عليه الكفار.

كذلك فسر الآيات بالأحاديث في مواضع كثيرة في تفسيره، منها، كما رأيناه يفسر الآيات بالحديث عند قوله تعالى: ﴿الَّذينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وقُعُوداً وعَلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ في خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ﴾[٨٦]. قال الزمخشري: «أي ذكراً دائباً على أي حال كانوا من قيام وقعود واضطجاع لا يخلون بالذكر في أغلب أحوالهم

وعن ابن عمر وعروة بن الزبير وجماعة انهم خرجوا يوم العيد إلى المصلى فجعلوا يذكرون الله فقال بعضهم: أما قال الله تعالى قياماً وقعوداً فقاموا يذكرون الله على اقدامهم. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله[٨٧].

هكذا فسر الزمخشري الآيات بالآيات والأحاديث النبوية في تفسيره.

ذكر المسائل الفقهية

وأما المسائل الفقهية فقد توجد كثيراً في الكشاف ذكرها الزمخشري عند تفسير آيات الأحكام وناقشها مناقشة ببيان اختلاف الفقهاء وايراد آرائهم ورجح هناك قول الإمام أبي حنيفة (رح) في أغلب الأحيان لأنه كان حنفي المذهب غير معتصب به[٨٨]، فمثلاً ذكر المسائل الفقهية عند قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ في الْقَتْلى الْحُرُّ بِالْحُرِّ والْعَبْدُ بِالْعَبْدِ والأُنْثى بِالأُنْثى﴾[٨٩]. عن عمر بن عبد العزيز والحسن البصري وعطاء وعكرمة، وهو مذهب مالك والشافعي رحمة الله عليهم أن الحر لا يقتل بالعبد والذكر لا يقتل بالانثى أخذا بهذه الآية ويقولون هي مفسرة لما انهم رأوا في قوله تعالى ﴿النَّفْسُ بِالنَّفْسِ﴾ ولان تلك واردة لحكاية ما كتب في التوراة على أهلها وهذه خوطب بها المسلمون وكتب عليهم ما فيها. وعن سعيد بن المسبب والشعبي والنخعي وقتادة والثوري، وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه أنها منسوخة بقوله «النفس بالنفس» والقصاص ثابت بين العبد والحر والذكر والانثى، ويستدلون بقوله صلى الله عليه وسلم المسلمون تتكافأ دماؤهم وبأن التفاضل غير معتبر في الانفس بدليل أن جماعة لو قتلوا واحداً قُتلوا به، وروي أنه كان بين حي من أحياء العرب دماء في الجاهلية كان لأحدهما طول على الآخر فأقسموا لنقتلن الحر منكم بالعبد منا والذكر بالانثى والاثنين بالواحد فتحاكموا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جاء الله بالإسلام فنزلت وأمرهم أن يتساووا[٩٠].

إن الزمخشري رحمه الله تعالى ذكر هنا أقوال الفقهاء في جواز قتل الحر بالعبد والذكر بالانثى وعدمه فعرض فيها اولاً رأي عمر بن عبد العزيز والحسن وعطاء وعكرمة ومالك والشافعي، ثم أورد الدلائل على مسلكهم أن لا يقتل الحر بالعبد والذكر بالانثى بدون توسع، ثم أعقب قول ابن المسيب والشعبي والنخعي وأبي حنيفة وأصحابه في جواز قتل الحر بالعبد والذكر بالانثى وأورد عليه الدليل ومال إليه باضافته الدلائل من بيان سبب النزول لهذه الآية كأنه أراد بسياق عبارته ترجيح قول الإمام أبي حنيفة (رح) فيه.

وكما ذكر أيضاً مسألة الطلاق عندما فسر قوله تعالى: ﴿الطَّلاقُ مَرَّتانِ فَإِمْساكٌ بِمَعْروفٍ أَوْ تَسْريح بِإِحسان﴾[٩١] قال: تخيير لهم بعد أن علمهم كيف يطلقون بين أن يمسكوا النساء بحسن العشرة والقيام بواجبهن أو أن يسرحوهن السراح الجميل الذي علمهم. وقيل معناه الطلاق الرجعي مرتان لانه لا رجعة بعد الثلاث فإمساك بمعروف، أي برجعة أو تسريح بإحسان أي بأن لا يراجعها حتى تبين بالعدة أو بأن لا يراجعها مراجعة يريد بها تطويل العدّة عليها وضرارها. وقيل بأن يطلقها الثالثة في الطهر الثالث. وروي أن سائلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أين الثالثة فقال عليه الصلاة والسلام أو تسريح بإحسان. وعند أبي حنيفة وأصحابه الجمع بين التطليقتين والثلاث بدعة، والسنة أن لا يوقع عليها إلا واحدة في طهر لم يجامعها فيه لما روي في حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له إنما السنة أن تستقبل الطهر استقبالاً فتطليقها لكل قرء تطليقة وعند الشافعي لا بأس بإرسال الثلاث لحديث العجلاني الذي لاعن امرأته فطلقها ثلاثاً بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم

فلم ينكر عليه[٩٢]. كذلك ذكر الزمخشري مسألة القروء وأورد فيها أقوال الفقهاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾[٩٣] قال الزمخشري: القروء جمع قرء او قر وهو الحيض بدليل قوله عليه الصلاة والسلام: دعي الصلاة أيام إقرائك. وقوله: طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان، ولم يقل طهران لقوله تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ فأقام الاشهر مقام الحيض دون الاطهار ولان الغرض الأصيل في العدة استبراء الرحم والحيض هو الذي تستبرأ به الارحام دون الطهر ولذلك كان الاستبراء من الأمة بالحيضة. ويقال أقرأت المرأة إذا حاضت وامرأة مقرئ. وقال أبو عمرو بن العلاء دفع فلان جاريته إلى فلانة تقرئها أي تمسك عندها حتى تحيض للاستبراء[٩٤].

وجدير بالذكر أن الاختلاف وقع بين الامام الشافعي (رح) وأبي حنيفة (رح) في تعيين معنى القرء هل هو الحيض أم الطهر؟ فقال الإمام الأعظم: إنه الحيض. وقال الشافعي (رح): إنه الطهر[٩٥].

الاهتمام بالصناعة النحوية

وقد اهتم كثيراً بالصناعة النحوية ووجوه الإعراب. بذل الزمخشري الجهود الرائعة في المسائل النحوية فذكر الإعراب للتنسيق بين المعاني القرآنية[٩٦]، فمثلاً ذكر عند تفسير قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾[٩٧] الجملة في محل الرفع إن كان «الذين يؤمنون بالغيب» مبتدأ وإلا فلا محل لها. ونظم الكلام على الوجهين إنك اذا نويت الابتداء بالذين يؤمنون بالغيب فقد ذهبت به مذهب الاستئناف وذلك انه لما قيل هدى للمتقين واختص المتقون بأن الكتاب لهم هدى اتجه لسائل أن يسأل فيقول: ما بال المتقين مخصوصين بذلك؟ فوقع قوله ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ كأنه جواب لهذا السؤال المقدر وجيء بصفة المتقين المنطوية تحتها خصائصهم التي استوجبوا بها من الله أن يلطف بهم ويفعل بهم ما لا يفعل بمن ليسوا على صفتهم، أي الذين عقائدهم وأعمالهم تجعلهم أحق بأن يهديهم الله ويعطيهم الفلاح، ونظيره قولك أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم الانصار الذين قارعوا دونه وكشفوا الكرب عن وجهه، اولئك أهل للمحبة، وإن جعلته تابعاً للمتقين وقع الاستئناف كأنه قيل: ما للمستقلين بهذه الصفات قد اختصوا بالهدى؟ فأجيب بأن اولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلاً وبالفلاح آجلاً. وأعلم إن هذا النوع من الاستئناف يجيء تارة باعادة اسم من استؤنف عنه الحديث كقولك: قد أحسنت الى زيد، حقيق بالإحسان. وتارة بإعادة صفته كقولك: أحسنت إلى زيد صديقك القديم. أهل لذلك منك. فيكون الاستئناف بإعادة الصفة أحسن وأبلغ لانطوائها على بيان الموجب وتلخيصه[٩٨]. فأوضح الزمخشري في هذه العبارات محل الاعراب لجملة ﴿اولئك على هدى من ربهم﴾ بذكر المثل، وهكذا وجدناه يذكر القاعدة النحوية والصرفية كثيراً في كتابه هذا عند تفسير الآيات.

الأخذ بالروايات الاسرائيلية

الروايات الإسرائيلية هي رواية أهل الكتاب[٩٩]. قد كثرت هذه الروايات في الكشاف، فمثلاً تناول الزمخشري هذه الرواية في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾[١٠٠]: كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها اذا اعجبته وكانت لهم عادة في المواساة بذلك قد اعتادوها وقد روينا ان الانصار كانوا يواسون المهاجرين بمثل ذلك. فاتفق ان عين داود وقعت على امرأة رجل يقال له أوريا فاحبها فسأله النزول له عنها فاستحيا ان يرده ففعل فتزوجها وهي ام سليمان فقيل له: إنك مع عظيم منزلتك وارتفاع مرتبتك

وكبر شأنك وكثرة نسائك لم يكن ينبغي لك أن تسأل رجلاً ليس له إلا امرأة واحدة النزول عنها بل كان الواجب عليك مغالبة هواك وقهر نفسك والصبر على ما امتحنت به. وقيل خطبها أوريا ثم خطبها داود فآثره أهلها فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه[١٠١]. وهذه رواية اسرائيلية.

الاهتمام بوجوه القراءات

ذكرت القراءات واختلافات القراء ولهجات القبائل في هذا الكتاب بتوسع كبير فاورد الزمخشري القراءات المختلفة لآية واحدة فناقشها ورجح قراءة الجمهور في بعض الأحيان مع إبراز رأيه فيه[١٠٢]. مثلاً بين وجوه القراءات عند تفسير قوله تعالى: ﴿ذلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾[١٠٣] قرأ أبو الشعثاء لا ريب فيه بالرفع، والفرق بينها وبين المشهورة توجب الاستغراق وهذه يجوزه الوقف على فيه وهو المشهور، وعن نافع وعاصم انهما وقفا على لا ريب ولابد للواقف من أن ينوي خبراً. ونظيره قوله تعالى: ﴿قالُوا لا ضَيرَ﴾ وقول العرب لا بأس وهي كثيرة في لسان أهل الحجاز والتقدير لا ريب فيه[١٠٤]. وذكر أيضا أوجه القراءات عند قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[١٠٥] قال: «قرئ ملك يوم الدين ومالك وملك بتخفيف اللام. وقرأ أبو حنيفة (رح) مَلَكَ يَوْمَ الدّينِ، بلفظ الفعل ونصب اليوم، وقرأ أبو هريرة رضي الله عنه مالك بالنصب وقرأ غيره ملك وهو نصب على المدح، ومنهم من قرأ مالك بالرفع وملك هو الاختيار لأنه قراءة أهل الحرمين، ولقوله تعالى ﴿لمن الملك اليوم﴾ ولقوله ﴿مَلِكِ النَّاس﴾[١٠٦]».

الاستشهاد بالشعر

إن الشعر من أهم فنون الأدب العربي، فالعرب كانوا يتماثلون به أحوال حياتهم ويسجلون به مآثرهم ويعبرون به عن وقائعهم وحوادثهم حتى صار ديوانهم وذخائر معاني كلماتهم ولغاتهم[١٠٧]. فهذا الشعر العربي له دور كبير ايضا في فهم مفردات القرآن كما قال ابن عباس (رض): «إذا قرأتم شيئا من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب فإن الشعر ديوان العرب»[١٠٨]. وقال عمر رضي الله عنه لأصحابه: عليكم بديوانكم لا تضلوا. قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم[١٠٩].

وقد تأثر الزمخشري بأقوال الصحابة وتشجيعهم على الرجوع للشعر لفهم غريب مفردات القرآن فاستخدم عدداً كبيراً من الأشعار والأبيات العربية في الكشاف كشواهد حتى ألّف العلماء كتباً مستقلة على شواهده[١١٠] وبه يمتاز الكشاف عن غيره. نذكر بعض الاشعار التي استخدمها الزمخشري عند تفسير الآيات مثلاً نجده يقرر الشعر عند قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إلى أجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوه﴾[١١١] قال «اذا داين بعضكم بعضاً يقال داينت الرجل عاملته (بدين) معطياً أو آخذاً كما تقول بايعته إذا بعته أو باعك. قال رؤبة:

دايـنت أروى والديـون تـقضى
فمطلت بعضا واديت بـعضا[١١٢]

وذكر أيضاً الشعر عند قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم﴾[١١٣] قال: ادخل قد ليؤكد علمه بما هم عليه من المخالفة عن الدين والنفاق ومرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد وذلك أن قد إذا دخلت على المضارع كانت بمعنى ربما فوافقت ربما في خروجها الى معنى التكثير في نحو قوله:

فان تمس مهجور الغناء فربما
أقـام بـه بـعد الوفـود وفـود
اخي ثـقة لا تـهلك الخمر مـاله
ولكنه قد يهلك المال نـائله[١١٤]

وذكر الشعر ايضاً عند قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾[١١٥] قال الزمخشري: فان قلت ما معنى وقوع لو تركوا وجوابه صلة الذين؟ قلت: معناه وليخش الذين صفتهم وحالهم أنهم لو شارفوا أن يتركوا خلفهم ذرية ضعافاً وذلك عند احتضارهم خافوا عليهم الضياع بعدهم لذهاب كافلهم وكاسبهم كما قال القائل:

لقد زادَ الحياة إليّ حباً
بناتي أنهن من الضعاف
أحاذر أن يرين البؤس بعدي
وأن يشربن رنقاً بعد صافي[١١٦]

وهكذا أخذ الزمخشري الأشعار الكثيرة في كتابه هذا للشواهد.

ذكر الحديث

استشهد الزمخشري في هذا التفسير بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وآراء كبار الصحابة وتابعيهم كابن عباس (رض) وابن مسعود (رض) وعلي بن أبي طالب (رض) وعائشة (رض) وحذيفة (رض) وعبدالله بن عمر (رض) ومجاهد وعكرمة وسعيد بن المسيب وزيد بن علي وجعفر الصادق وسفيان بن عيينة وسفيان الثوري والشعبي وابراهيم النخعي ومحمد بن سيرين وطاوس وقتادة ووهب بن منبه والزهري وغيرهم من الصحابة والتابعين ونقل الزمخشري عنهم الأحاديث بمجرد الأسانيد ولم يلتزم طريق العنعنة بل اكتفى في ايرادها بلفظة وفي الحديث «أو» قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا وكذا[١١٧].

وكثيراً ما ينقل الزمخشري عن الحسن البصري وقتادة بن دعامة السدوسي وعبدالله بن عمر وابن عباس والخلفاء الاربعة ومحمد بن الحنفية وزيد بن علي وغيرهم لأنه هو وطائفة المعتزلة كانوا يعدونهم من الطبقة الأولى لمذهبهم[١١٨].

واستعان الزمخشري بالأحاديث الموضوعة في كثير من المواضع خاصة في دبر كل سورة فذكر فيها الحديث عن طريق أُبي بن كعب ورواية أُبي في فضل السورة أكثرها ضعيف أو موضوع. قيل إن الزنادقة وضعوا هذه الأحاديث في فضلها لاشتغال الناس بالقرآن عن غيره[١١٩] وأمثلة هذه الأحاديث الموضوعة كثيرة. فمنها رأينا الزمخشري يذكر بقوله: «عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزلت علي سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون الف ملك بالتسبيح والتحميد فمن قرأ الأنعام استغفر له اولئك السبعون الف ملك بعدد كل آية من سورة الانعام يوماً وليلة»[١٢٠].

وهذا الحديث قد روي من طريق أُبي بن كعب، وفي سنده أبو عصمة، وهو متهم بالكذب[١٢١]، وقد وضعه العلماء وناقدوا عليه سنداً ومتناً.

استشهد الزمخشري في كثير من الأحيان بالأحاديث الضعيفة لإثبات اعتقاده[١٢٢]، مثلاً إنه ذكر حديثاً ضعيفاً عن عبدالله بن عمرو في قضية خلود العصاة في النار عند تفسير قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيد﴾[١٢٣] عن عبدالله بن عمرو بن العاص: ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه ابوابها ليس فيها احد وذلك بعد ما يلبثون فيها احقاباً وقد بلغني أن من الضلال من اغتر بهذا الحديث[١٢٤].

هذه الخصائص النادرة والمميزات الفائقة لتفسير الكشاف التي أثرت تأثيراً كبيراً على علماء المسلمين حتى ادخلوه مباشرة في صميم أصول الثقافة الإسلامية وجعلوه مصدراً للأبحاث والدراسة وأحلّوه محل المكانة المرموقة.

المصادر والهوامش

١ـ مناع القطان، مباحث في علوم القرآن (الرياض: مكتبة المعارف، ب ت)، ص ١١.

الامام شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، الجزء العشرون (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٧/ ١٩٩٦)، ص: ١٥٤ ـ ١٥٥؛ دائرة المعارف الإسلامية، المجلد ١٠ (بيروت: دار المعرفة، ب، ت)، ص: ٤٠٣ ـ ٤٠٤.

٢ـ مقدمة الكشاف: ص ٢ ـ ٣.

٣ـ المصدر نفسه: ص ٣.

٤ـ الدكتور عمر الملا حويش، أثر البلاغة في تفسير الكشاف (بغداد: مطبعة دار البصري، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م)، ص: ٤٧ و١٣٦.

٥ـ مصطفى الصاوي الجويني، منهج الزمخشري في تفسير القرآن، (مصر: دار المعارف ب، ت)، ص: ٧٦ ـ ٧٩.

٦ـ المصدر نفسه، ص: ٧٦؛ أثر البلاغة، ص: ٤٧، ١٣٦، مقدمة الكشاف، ص: ٢ ـ ٣؛ الدكتور محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، الجزء الاول (مصر: دار الكتب الحديثة، ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م)، ص: ٤٣٣.

٧ـ منهج الزمخشري، ص: ٧٩؛ أثر البلاغة، ص: ٥٣.

٨ـ ابن خلكان، الجزء الرابع، ص: ٢٥٥، حاجي خليفة، كشف الظنون، المجلد الثاني، (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٢)، ص: ١٤٧٦.

٩ـ التفسير والمفسرون، الجزء الاول، ص: ٤٤، دراسات في التفسير، ص: ٩٧.

١٠ـ الدكتور فضل الرحمن، زمخشري كي تفسير الكشاف ايك تحليلي جائزه (عليكره؛ جامعة عليكرة الإسلامية، ١٩٨٢ م)، ص: ٥٢٠.

١١ـ محمد منير الدمشقي، نموذج بن الأعمال الخيرية (الرياض: مكتبة الامام الشافعي، ١٤٠٩ هـ)، ص: ٦٦٧.

١٢ـ كشف الظنون، الجزء الاول، ص: ١١٧٦؛ مفتاح السعادة، المجلد الثاني، ص: ٩٠.

١٣ـ دراسات في التفسير، ص: ٩٧؛ أثر البلاغة، ص: ٦٠.

١٤ـ اجتنس جولد تسيهر، مذاهب التفسير الاسلامي، (مصر: مكتبة الخانجي، ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م) ص: ١٤٢.

١٥ـ التفسير والمفسرون، الجزء الاول، ص: ٤٣٩ ـ ٤٤٠.

١٦ـ محمد لطفي الصباغ، لمحات في علوم القرآن (بيروت: المكتب الاسلامي، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م)، ص: ٢٤٦.

١٧ـ دراسات في التفسير، ص: ١٠٢ ـ ١٠٣؛ لمحات في علوم القرآن، ص: ٢٤٦.

١٨ـ دراسات في التفسير، ص: ٩٩.

١٩ـ لمحات في علوم القرآن، ص: ١٤٥.

٢٠ـ المصدر نفسه.

٢١ـ يوسف سركس، معجم المطبوعات العربية والمعربة، الجزء الاول (ايران: مكتبة آية الله العظمى المرعشي، ب ت)، ص: ٢٥٨.

٢٢ـ أبو الحسن علي بن اسماعيل الاشعري، الإبانة عن أصول الديانة،(المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، ١٤١١هـ) ص: ١١.

٢٣ـ النموذج، ص: ٣٦٧؛ كشف الظنون، الجزء الثاني، ص: ١٤٧٧.

٢٤ـ زمخشري كي تفسير الكشاف، ص: ٥٢٠؛ النموذج، ص: ٣٦٧.

٢٥ـ النموذج، ص: ٣٦٧؛ طبقات المفسرين، ص: ٢٧٧.

٢٦ـ المصدر نفسه.

٢٧ـ كشف الظنون، المجلد الثاني، ص: ١٤٧٩.

٢٨ـ كشف الظنون، المجلد الثاني، ص: ١٤٧٩؛ النموذج، ص: ٣٦٩.

٢٩ـ المصدر نفسه.

٣٠ـ كشف الظنون، المجلد الثاني، ص: ١٤٨٠.

٣١ـ المصدر نفسه، ص: ١٤٨١.

٣٢ـ احمد بن محمد الاثنوي، طبقات المفسرين (المدينة المنورة: مكتبة العلوم: ١٤١٧ هـ) ص: ١٩٩.

٣٣ـ المصدر نفسه، ص: ٤٣٢.

٣٤ـ طبقات المفسرين، ص: ٤٣٢.

٣٥ـ كشف الظنون، المجلد الثاني، ص: ١٤٨١.

٣٦ـ كشف الظنون، المجلد الثاني، ص: ١٤٨١؛ طبقات المفسرين، ص: ٣٠٣ ـ ٣٠٤.

٣٧ـ المصدر نفسه، ص: ٣٢٣.

٣٨ـ النموذج، ص: ٣٦٩؛ طبقات المفسرين، ص: ٣٢٣؛ كشف الظنون، المجلد الثاني، ص: ١٤٧٩ ـ ١٤٨٠.

٣٩ـ المصدر نفسه، ص: ١٤٨١.

٤٠ـ طبقات المفسرين، ص: ٣٧٣ ـ ٣٧٤؛ كشف الظنون، المجلد الثاني، ص: ١٤٨١.

٤١ـ كشف الظنون، المجلد الثاني، ص: ١٤٨١ ـ ١٤٨٢.

٤٢ـ ابن حجر العسقلاني، الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف (بيروت: دار المعرفة، ب ـ ت)، ص: ٢ (ويلي هذا الكتاب في آخر جزء الكشاف).

٤٣ـ النموذج، ص: ٣٧١.

٤٤ـ منهج الزمخشري، ص: ٧٨ ـ ٩٢.

٤٥ـ المصدر نفسه، ص: ٩٠.

٤٦ـ سورة البقرة، رقم الآية: ١.

٤٧ـ الكشاف، الجزء الأول، ص: ١٣ ـ ١٤.

٤٨ـ سورة الفاتحة، رقم الآية: ٢.
٤٩ـ الكشاف، الجزء الاول، ص: ٧.
٥٠ـ سورة النبأ، رقم الآية: ٤٠.
٥١ـ المصدر نفسه، رقم الآية: ٤٠.
٥٢ـ الكشاف، الجزء الرابع، ص: ١٨٠.
٥٣ـ سورة الدهر، رقم الآية: ١.
٥٤ـ الكشاف، الجزء الرابع، ص: ١٦٦ـ١٦٧.
٥٥ـ راشد ندوي، تفسير الكشاف مبنى ساقط الاعتبار روايتين، (الهند، الجامعة الإسلامية عليكره) ص: ١٠٠، ١٠٣ و١١٦.
٥٦ـ سورة البقرة، رقم الآية: ٢٦.
٥٧ـ الكشاف، الجزء الأول، ص: ٥٦ـ٥٧.
٥٨ـ سورة الانعام، رقم الآية: ٨.
٥٩ـ الكشاف، الجزء الثاني، ص: ٤.
٦٠ـ الامام البخاري، الجامع الصحيح، الجزء الثاني (ديوبند: كتب خانه رشيدية، ب ت) ص: ٧٦.
٦١ـ سورة آل عمران، رقم الآية: ١٧٨.
٦٢ـ الكشاف، الجزء الاول، ص: ٢٣٥.
٦٣ـ الامام الترمذي، الجامع، الجزء الثاني، (ديوبند: كتب خانه رشيدية، ب ـ ت) ص: ٩٣.
الامام احمد بن حنبل، المسند، الجزء الثاني (بيروت: دار الكتب العلمية ب ـ ت) ص: ٦٦٨.
٦٤ـ سورة الانعام، رقم الآية: ٢٦.
٦٥ـ الكشاف، الجزء الثاني، ص: ٩.
٦٦ـ الكافي الشاف، ص: ٦١.
٦٧ـ سورة السجدة، رقم الآية: ٢٢.
٦٨ـ الكشاف، الجزء الثالث، ص: ٢٣٣.
٦٩ـ سورة فاطر، رقم الآية: ٨.
٧٠ـ الكشاف، الجزء الثالث، ص: ٢٦٩.
٧١ـ المصدر نفسه.
٧٢ـ سورة فاطر، رقم الآية: ٩.
٧٣ـ الكشاف، الجزء الثاني، ص: ٣٦٩.
٧٤ـ سورة المؤمن، رقم الآية: ٤.
٧٥ـ الكشاف، الجزء الثالث، ص: ٤٣.
٧٦ـ سورة المنافقون، رقم الآية: ٤.
٧٧ـ الكشاف، الجزء الرابع، ص: ١١٠.
٧٨ـ سورة الحديد، رقم الآية: ١٥.
٧٩ـ الكشاف، الجزء الرابع، ص: ٦٦.
٨٠ـ الزمخشري شاعرا وكاتباً، ص: ٧٦.
٨١ـ اثر البلاغة، ص: ١٢٠.
٨٢ـ المصدر نفسه، ص: ١٦٢.
٨٣ـ سورة البقرة، رقم الآية: ٢٣.
٨٤ـ الكشاف، الجزء الاول، ص: ٤٨.
٨٥ـ سورة الفرقان، رقم الآية: ٣٢.
٨٦ـ سورة آل عمران، رقم الآية: ١٩١.
٨٧ـ الكشاف، الجزء الاول، ص: ٢٣٧.
٨٨ـ التفسير والمفسرون، الجزء الاول، ص: ٤٧٤.
٨٩ـ سورة البقرة، رقم الآية: ١٧٨.
٩٠ـ الكشاف، الجزء الاول، ص: ١١٠.
٩١ـ سورة البقرة، رقم الآية: ٢٢٩.
٩٢ـ الكشاف، الجزء الاول، ص: ١٣٨ـ١٣٩.
٩٣ـ سورة البقرة، رقم الآية: ٢٢٨.
٩٤ـ الكشاف، الجزء الاول، ص: ١٣٧.
٩٥ـ محمد علي الصابوني، روائع البيان، الجزء الاول (ايران: مؤسسة الوفاء ب ـ ت)، ص: ٣٢٨.
٩٦ـ الزمخشري شاعراً وكاتباً، ص: ٦٨.
٩٧ـ سورة البقرة، رقم الآية: ٥.
٩٨ـ الكشاف، الجزء الاول، ص: ٢٥.
٩٩ـ التفسير والمفسرون، الجزء الاول، ص: ١٦٥ـ١٦٨.
١٠٠ـ سورة ص، رقم الآية: ٢١.
١٠١ـ الكشاف، الجزء الثاني، ص: ٣٢١.
١٠٢ـ الزمخشري شاعراً وكاتباً، ص: ٦٠.
١٠٣ـ سورة البقرة، رقم الآية: ٢.
١٠٤ـ الكشاف، الجزء الاول، ص: ٢٠.
١٠٥ـ سورة الفاتحة، رقم الآية: ٣.
١٠٦ـ سورة الناس، رقم الآية: ٢.
١٠٧ـ الدكتور احمد امين، فجر الاسلام (مصر: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٥)، ص: ٥٧؛ الدكتور عز الدين اسماعيل، الادب وفنونه (مصر: مطبعة السعادة، ١٩٧٨)، ص: ١٥٢.
١٠٨ـ جابى زادة على فهمى، حسن الصحابة في شرح اشعار الصحابة، الجزء الاول (تركيا: در سعادت روشن مطبعة سى، ١٣٢٤)، المقدمة: الاتقان، الجزء الثاني، ص: ١٠.
١٠٩ـ التفسير والمفسرون، الجزء الاول، ص: ٧٤.
١١٠ـ عليان المرزوقي، مشاهدة الانصاف على شواهد الكشاف، (بيروت: دار المعرفة ب ـ ت).
١١١ـ سورة البقرة، رقم الآية: ٢٨٢.

١١٢ـ الكشاف، الجزء الاول، ص: ١٦٧.
١١٣ـ سورة النور، رقم الآية: ٦٣.
١١٤ـ الكشاف، الجزء الثالث، ص: ٨٧.
١١٥ـ سورة النساء، رقم الآية: ٩.
١١٦ـ الكشاف، الجزء الاول، ص: ٢٥.
١١٧ـ اثر البلاغة، ص: ١٩٦.
١١٨ـ منهج الزمخشري، ص: ١٥٨ـ ١٥٩.
١١٩ـ ملا علي القاري، الموضوعات الكبرى، تحقيق: ابو هاجر محمد سعيد بن بيسوني زغلول، (كراتشي: قديمى كتب خانه، ارام باغ، ب ـ ت) ص: ٣٢٤.
١٢٠ـ الكشاف، الجزء الثاني، ص: ٥١.
١٢١ـ الكافي الشاف، ص: ٦٣.
١٢٢ـ منهج الزمخشري، ص: ١٥٠.
١٢٣ـ سورة هود، رقم الآية: ١٠٧.
١٢٤ـ الكشاف، الجزء الثاني، ص: ٢٣٦.